

عنوان المداخلة:

الوعي الإيكولوجي عند بديع الزمان النورسي: أو عندما يصير الكون محراباً للعبادة

Ecological Consciousness in the Thought of Bediüzzaman Said Nursi:

When the Universe Becomes a Sanctuary for Worship

أ.د. زهير بن كتفي/Prof. Zouhir BENKETFI

جامعة الوادي، كلية العلوم الإسلامية، الوادي/ الجزائر

University of El-Oued, Faculty of Islamic Science, El-Oued/Algeria

Benketfi-zouhir@univ-eloued.dz ORCID ID: 0000-0001-8794-9371

مقدمة:

على الرغم من التقدم العلمي المطرد في محاولة لاستيعاب التحولات الإيكولوجية، إلا أن قضية الإيكولوجيا أو البيئة لا زالت تعدّ في العصر الراهن، بما تتضمنه من مشكلات متصاعدة في وتيرة انتشارها واستفحالها على مستويات مختلفة وفي ميادين متعددة، من أخطر القضايا في العصر الحديث، مما سيزيد حتماً على نحو غير مسبوق في حدة التحديات البيئية التي تواجه الإنسانية اليوم. وقد أفضى هذا الواقع إلى تحول القضايا البيئية إلى هاجس كوني يستشرف تهديداً للوجود البشري، فشهد هذا العصر اهتماماً عالمياً كبيراً بقضايا البيئة وبرزت الكثير من الدراسات والبحوث والمؤتمرات الدولية. ومن الملفت للانتباه أنّ أزمة البيئة قد تجذّرت أيضاً كإشكالية أخلاقية روحية، تتجاوز في ماهيتها الحلول التقنية والتكنولوجية البحتة. ومن هذا المنطلق تبرز ضرورة مساءلة المنظومات الفكرية والروحية المتأصلة في التراث الإنساني، سعياً نحو استكشاف رؤى تُؤسس لعلاقة أكثر اتزاناً وانسجماً بين الذات الإنسانية والمحيط الطبيعي وتقدم حلولاً جذرية للأزمة البيئية المعاصرة. ومن أبرز هذه المنظومات الفكرية والروحية والأخلاقية مشروع الإمام بديع الزمان النورسي رحمه الله عليه (1877-1960م)، وهو مشروع متكامل كان من بين ما اهتم به وأسس له الوعي الإيكولوجي الإيماني كأطروحة استثنائية لم يسبق إليها. وتتجسد هذه الأطروحة من خلال مكتباته "رسائل النور" التي انبعثت حقاً من نور القرآن الكريم وكانت كتفسير معنوي له يلائم مدارك العصر. فكان القرآن الكريم هو المصدر الإلهامي والمعرفي والروحي والأخلاقي والتشريعي الذي غرفت هذه الرسائل من نبعه الصافي؛ حيث نجد فيها الإمام النورسي يتلقى الوعي الإيكولوجي من خلال القرآن الكريم ويقارب عوالم هذا الكون باعتبارها كتاب الله المنظور تماماً كما يريد القرآن الكريم أن نتلقاها. ومن هنا قدم لنا النورسي الكثير من الحلول القرآنية لأزمة البيئة المعاصرة بالنظر إلى الكون على أنه محراب كبير للعبادة.

أهمية البحث:

ويكتسي هذا البحث أهميته من محاولته الاشتغال على سد الثغرة في الأدبيات البيئية المعاصرة التي غالباً ما تغفل البعد الإيماني والروحي والتعبدية والأخلاقي في تناولها لهذا الموضوع. وإبراز قدرة الفكر الإسلامي الأصيل، ممثلاً في التجربة النورية، على تقديم إجابات وجودية وعملية لمشكلات البيئة في العصر الحديث، والانتقال بمفهوم حماية ورعاية البيئة من دائرة الخوف من العقاب أو الضرر إلى دائرة السمو التعبدية والأخلاقي.

إشكالية البحث:

وتتحدد الإشكالية المركزية لهذا البحث في التساؤل الآتي: كيف استطاع الإمام بديع الزمان النورسي بناء وعي إيكولوجي يربط بين حماية البيئة والبعد التعبدية الروحي؟ وكيف يتحول الكون في رؤيته الشاملة من فضاء مادي صامت إلى محراب مفعم بالعبادة والتسبيح كحل للأزمة البيئية المعاصرة؟ وينبثق عن هذه الإشكالية الأسئلة الفرعية الآتية:

1- ما هو الفرق المفاهيمي عند النورسي بين الرؤية المادية للطبيعة والرؤية الإيمانية؟
2- كيف تساهم نظرية "تجلي الأسماء الإلهية" في تحويل عناصر الكون إلى آيات تستوجب الرعاية والتقديس؟

3- ما هي الملامح العملية للأخلاق البيئية في "رسائل النور" كالرحمة، والاقتصاد، ونبذ الإسراف؟
4- ما مدى راهنية الطرح النورسي وقدرته على تقديم بديل قيمى للأزمة الإيكولوجية العالمية؟

أهداف البحث:

وتتمثل الأهداف الأساسية التي يسعى هذا البحث إلى تحقيقها في أهداف معرفية نظرية وأخرى تطبيقية عملية. فأما الأهداف المعرفية النظرية فمنها على وجه الخصوص ما يلي:
- إبراز كيف يمكن للرؤية الإيكولوجية للعالم للإمام بديع الزمان النورسي أن تدعم أو تعزز الاهتمام بالبيئة.
- محاولة استكشاف منظور الإمام بديع الزمان النورسي إلى العالم الطبيعي ومكوناته، والقيم الروحية والأخلاقية التي يضيفها عليه.

- إرادة تقديم منظور متجدد للدراسات الإسلامية وإثرائها بالتركيز على البعد البيئي ضمن التراث الروحي الإسلامي مجسداً في الإمام بديع الزمان النورسي.

وأما من جملة الأهداف التطبيقية العملية التي تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقها فمنها:

- رفع مستوى الوعي البيئي وتعزيزه لدى الأفراد والمجتمعات المسلمة من خلال تسليط الضوء على الأسس الروحية والأخلاقية للتعامل المسؤول مع البيئة عند بديع الزمان النورسي.

- تطوير مناهج وأساليب تربوية تستلهم من تعاليم الإمام بديع الزمان النورسي لغرس قيم الوعي البيئي في النشء المسلم والأجيال القادمة.

- فتح آفاق للحوار بين الثقافات والحضارات المختلفة حول القيم الروحية والأخلاقية المشتركة التي تدعم

حماية البيئة.

منهج البحث:

ومن أجل معالجة هذا الموضوع اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك من خلال تتبع النصوص والرسائل البيئية في مدونة "رسائل النور"، وتفكيك المفاهيم والمصطلحات النورية المتعلقة بالكون والطبيعة، ثم تحليلها وتركيبها للوصول إلى صياغة معالم الوعي الإيكولوجي عنده، مع إسقاط هذه الرؤية على الواقع المعاصر لمعرفة مدى فاعليتها.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وأربعة مطالب أساسية وخاتمة كالاتي:

المقدمة: تضمنت أهمية البحث، وإشكاليته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته العامة.

1- المطلب الأول: الإطار المفاهيمي للبيئة والكون في فكر الإمام النورسي.

2- المطلب الثاني: الكون كمحارب للعبادة في فكر الإمام النورسي.

3- المطلب الثالث: الأخلاق الإيكولوجية العملية في رؤية الإمام النورسي.

4- المطلب الرابع: راهنية الطرح النورسي في مواجهة الأزمة البيئية المعاصرة.

الخاتمة: أجابت عن إشكالية البحث واشتملت على أهم النتائج المتوصل إليها.

المطلب الأول: الإطار المفاهيمي للبيئة والكون في فكر الإمام النورسي

أولاً: "الكتاب المنظور" لدى الإمام النورسي

قبل أن نلج إلى بيان الإطار المفاهيمي للبيئة والكون في رؤية النورسي، لا بد أن نتناول بالتعريف ماذا نقصد بـ"الوعي الإيكولوجي" أو "الإيكولوجيا" أو البيئة عموماً.

1- مفهوم الإيكولوجيا والبيئة:

الإيكولوجيا أو "علم البيئة" Ecology هو "العلم الذي يهتم بدراسة العلاقة بين الكائنات الحية، بما فيها البشر، وبين بيئتهم المادية، ويسعى إلى فهم الروابط الحيوية التي تربط بين النباتات والحيوانات وبين البيئة من حولهم". (Ecological, 2026)

ويأتي مصطلح البيئة Environement ويراد به المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان، بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة، وكائنات حية، وما أقامه الإنسان من منشآت لسد احتياجاته". (مرسي، 1999، صفحة 19). وهي كذلك: "الوسط الذي يعيش فيه الإنسان بما يتضمنه من إمكانيات وموارد طبيعية واجتماعية يتفاعل معها الإنسان مؤثراً ومتأثراً، بغرض إشباع احتياجاته واستمرار حياته، وأداء رسالته في الوجود" (مرسي، 1999، صفحة 8).

فمصطلح البيئة يستوعب: الأرض، وما تضمّه من مكونات طبيعية ممثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان، وصخور ومعادن وتربة وموارد مائية، ونباتات وحيوانات، وما يحيط

بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية اللازمة لوجود الحياة على سطح الأرض. وبيئة الإنسان بالمفهوم الواسع هي الكون كله الذي سُخِّر لخدمته وفي إطاره تتنوع البيئات ذات العلاقة بالإنسان، فهناك البيئة البرية والبحرية والجوية والزراعية والصناعية، بل يندرج في البيئة المحيط الاجتماعي والثقافي، والاقتصادي الذي يعيش الإنسان في إطاره ويتعامل مع مكوناته. (ليل، 2001، صفحة 18).

ويجب التنويه في إطار هذا السياق المعرفي الدلالي للكلمتين أن النظام الإنساني والنظام الكوني ليسا في الواقع منفصلين أصلاً، كما هو متخيل ببساطة ساذجة، على ما يرى الشيخ عبد الواحد يحيي (رونيه غينون René Guénon 1886-1951م) بل هما بالعكس في ارتباط وثيق بحيث أن كلاً منهما يؤثر باستمرار على الآخر، ويوجد دائماً تناسب بين كل من أوضاعهما. (غينون، 2013، صفحة 129).

وعلى العموم فإنَّ مصطلحي "الإيكولوجيا" Ecology و "البيئة" Environement يُستخدمان كمرادفين في الحوارات اليومية، لكن في السياق العلمي، قد يُفَرَّق بينهما من حيث أنَّ البيئة هي المكان والمحيط، أما الإيكولوجيا فهي العلم الذي يدرس العلاقات داخل هذا المحيط. وبناء عليه فإننا ننهب إلى أننا نستعمل في هذه الدراسة مصطلح الإيكولوجيا بمعنى البيئة، وعندما نتحدث عن الوعي الإيكولوجي فإننا نقصد به الوعي البيئي تحديداً. ومن خلال هذه التعريفات المذكورة يمكن القول إنَّ الحديث عن الوعي الإيكولوجي عند الإمام بديع الزمان النورسي كما سنرى يمكن أن يتقاطع مع ما يسمَّى اليوم بـ"الأخلاق البيئية"؛ التي ينظر إليها على أساس أنها نظام شامل يتكون من الطباع السليمة للإنسان عند معاملته مع العالم، حيث ظهر الحوار عن الأخلاق البيئية بين المهتمين بهذا المجال في أواخر القرن العشرين. (مونجي، 2016، صفحة 136).

2- المعنى في عوالم الكون:

إنَّ الإمام النورسي وهو يتحدث عن الكون الواسع الجميل الذي هيأه الله تعالى لعباده إنَّما كان يقارب عوالم هذا الكون باعتبارها كتاب الله المنظور، ومظهر آياته ونعمه، ومرايا تجليات أسمائه الحسنى وصفاته العليا. فمن خلال هذا المنظور يتلقى الإمام النورسي مفهوم البيئة ومعناها. فالرؤية البيئية عنده تتشكل من خلال فلسفة وجودية فريدة تعيد تعريف الطبيعة وعلاقتها بالخالق وبالإنسان، فهو لا يرى البيئة كمجموعة من العناصر الجغرافية والمناخية الميته، بل يراها بنية حيوية دالة على خالقها، وهو ما نفصله في هذا المطلب.

إن نقطة البدء في الوعي الإيكولوجي لدى الإمام النورسي هي تجاوز النظرة السطحية للطبيعة والانتقال إلى النظرة الإيمانية الروحية الاستبصارية العميقة؛ فالكون في فكره ليس مجرد فضاء مادي صامت، بل هو "كتاب إلهي منظور" يوازي "كتاب الله المسطور"، القرآن الكريم.

ولتحليل كيفية قراءة هذا الكتاب الكوني، وضع الإمام النورسي أساسين معرفيين هما ركيزة التفريق بين الرؤية الإيمانية الروحية التعبدية، والرؤية المادية. وهما: "المعنى الحرفي" و "المعنى الاسمي"، أشار إليهما في سياق كلامه عن مسيرته الفكرية والعلمية. فقد ذهب إلى أنَّ طي أربعين سنة من عمره، وثلاثين

سنة من تحصيله، لم يتعلم منها إلا أربع كلمات وهي: المعنى الحرفي، والمعنى الاسمي، والنية، والنظر. ومفهوم المعنى الحرفي عنده هو أن تنظر إلى الشيء لغيره، أي لصانعه، ولا تنظر إليه لنفسه؛ كأن تقول مثلاً: "ما أجمل صنع الله فيه وما أحسن دلالته على عظمة صانعه" ! ولا تقل: "ما أجمل ذاته" ! وأما مفهوم المعنى الاسمي فهو أن تنظر إلى الشيء لنفسه وتذهل عن صانعه، فتقول: "ما أجمل هذا الشيء بذاته" ! وتنسى المنعم الحقيقي. (النورسي ب.، كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة العاشرة، 1998، صفحة 70 وما بعدها).

فالمعنى الحرفي، هو النظر إلى الكائنات والطبيعة لا لذاتها، بل لكونها تدلّ على صانعها، فالحرف في اللغة لا يقصد لذاته بل لبيان معنى في غيره. فكل الكائنات في هذا الكتاب المنظور من الذرة إلى المجرة، في انتظامها وتوازنها وتناسقها، هي بمثابة "كلمة" خطّتها القدرة الإلهية، وتحمل دلالة ومعنى، وهي عند الإمام النورسي برهان على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته. قال تعالى: ﴿سُئِرْ بِهِمْ ءَايَاتُنَا فِي السَّمَاءِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]. فعناصر البيئة، من الأشجار والبحار والحيوانات والجمادات وغيرها، في رؤية الإمام النورسي لا تُدرس لمعرفة خصائصها المادية المحضة فقط، بل تدرس أيضاً لكونها "مرآة" تعكس الوجود الإلهي وتدلّ عليه. هذه النظرة كفيلة بأن تضفي على الطبيعة قيمة معنوية وقداسة تمنع الإنسان من العبث بها أو تدميرها، لأنها تصبح حينئذٍ صلة وصل بالخالق عزّ وجلّ.

والمعنى الاسمي، هو النظر إلى الكائنات لذاتها، وحصر قيمتها في حدودها المادية وكأنّها وجدت صدفة أو هي صانعة نفسها. هذه النظرة، كما يرى النورسي، هي "أسّ الداء" في الفلسفة المادية المعاصرة التي تنظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي لا بالمعنى الحرفي؛ أي تتحدث عنها لنفسها. وتنظر خاصة إلى كمالات ماهياتها ووظائف أجهزتها. بينما علم القرآن الكريم يتحدث عن الكائنات بالمعنى الحرفي؛ أي ينظر إليها من حيث دلالتها على صانعها المختر، ويرى وظائفها آيات مسطورة تدلّ على أسماء الصانع الحكيم وصفاته. الفلسفة تقول في الكائنات: "ما أجملها" !، أما حكمة القرآن الكريم فتقول: "ما أجمل صنعها" ! "وما أحسن ما تدلّ عليه من كمالات صانعها" ! (النورسي ب.، كليات رسائل النور: كتاب الكلمات، الثانية عشرة، 1998، صفحة 142 وما بعدها). فالإنسان عندما ينظر إلى الطبيعة بالمعنى الاسمي، يراها مجرد "مادة خام" يسعى للسيطرة والسيادة عليها. وهذا ما أدى به إلى شرعنة استنزافها دون قيود، فالأمر به إلى إفسادها والإخلال بتوازنها. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41].

وكما نلاحظ فإنّ الإمام النورسي يعقد مقارنة دقيقة بين الفلسفة المادية التي هي مسؤولة بدرجة كبيرة عن الأزمة البيئية المعاصرة وبين الحكمة القرآنية الإيمانية-التعبديّة مبيناً من خلالها رؤية كل منهما للبيئة الكونية. فهو يعمل على تفكيك المركزية الإنسانية في الحداثة الغربية التي تجعل الإنسان ينظر إلى البيئة كملك شخصي ومادة للاستهلاك، بينما المعنى الحرفي ينقل الإنسان من رتبة السيادة والهيمنة والسطو على الطبيعة إلى رتبة القارئ المتأمل في محرابها. حتى أن جمالها لا يأسره ذاتياً واستقلالاً عن مكوّنها وخالقها بل يفضي به إلى رؤية خالقه فيها، فهي المرآة التي يتجلّى فيها الحق عزّ وجلّ للخلق، قال جلّ وتعالى: ﴿وَمِنْ

عَالِيَتِهٖ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلَوْنَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم:22].

ومن هذا المنطلق فإن الوعي الإيكولوجي لدى الإمام النورسي يبدأ من تحويل أدوات المعرفة الإنسانية لتقرأ الكون بالمعنى الحرفي. وعندها فقط يتحول تأمل الطبيعة أو الكون من عملية جافة إلى عبادة حقيقية، ويصبح الحفاظ على البيئة هو صيانة لكلمات الله وآياته في الآفاق.

ثانياً: التوازن البيئي كدليل على العناية الإلهية

يرد الحديث عن التوازن البيئي في القرآن الكريم بصفة متكررة وكثيراً ما يُذكر الإنسان بأن الموجودات والكائنات خلقت بميزان ونظام وعدل وتوازن. قال عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:22]. وفي هذا السياق يقول الإمام النورسي: "فإن شئت فأنعم النظر، في الموجودات كلها، ابتداءً من حجيرات الجسم إلى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات إلى التناسب والانسجام بين أجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصارفها إلى موارد المياه الجوفية وصرفياتها، ومن تولّدات الحيوانات والنباتات ووفياتها إلى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم إلى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام إلى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى أنّ الكلّ يوزن ويُقدّر بميزان خارق الحساسية، وأنّ الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقل الإنسان أن يرى إسرافاً حقيقياً في مكان وعبثاً في جزء.. بل يلمس علم الإنسان ويشاهد أكمل نظام وأتقنه في كل شيء فيحاول أن يُريه، ويرى أروع توازنٍ وأبدعه في كل موجود فيسعى لإبرازه. فما العلوم التي توصل إليها الإنسان إلا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع" (النورسي ب..، كليات رسائل النور: اللغات، اللعة الثلاثون، اسم العدل، 1993)

والإمام النورسي من هذا المنطلق لا ينظر إلى التوازن البيئي والحيوي في الطبيعة والكون بوصفه نتاجاً لمصادفات طبيعية، بل يراه مظهراً مباشراً للعناية الإلهية بالموجودات، وهو بهذا الربط يضيف صبغة من القدسية على النظام البيئي؛ حيث يجعل من تحقيق التوازن الكوني وما يفترضه من العناية بالبيئة ونظافتها وتطهيرها من الواجبات الإيمانية التعبدية. كما أنه يذهب إلى أنّ من أخص الأسماء الإلهية التي تتجلى في الطبيعة في مظهر هذا التوازن البيئي هما اسمي: "القدوس" و"العدل".

1- **التطهر الكوني بتجلي اسم الله "القدوس":** إنّ البيئة الطاهرة عند النورسي هي تلك البيئة التي تجمع بين طهارة الوسط المعنوي والمادي، وليس الوسط المادي وحده. وأول شروط حماية البيئة المعنوية هو نظافة العقل والفكر والقلب والروح والوجدان جميعاً. ويؤكد الإمام النورسي على أنّ الإسلام يأمر بطهارة المظهر والمخبر والظاهر والباطن، ولا يتقبل إنسان نظيف الظاهر ملوث الباطن. كما لا يتقبل نظيف الباطن ملوث الظاهر (الصالح، "نظرة الإمام بديع الزمان النورسي الكونية إلى البيئة"، ضمن كتاب: الحفاظ على البيئة في الإسلام وفي الدراسات العلمية المعاصرة، 2012، صفحة 105).

فالكون عند النورسي معمل ومصنع عظيم، ومستشفى ومسكن هائل، ومن الطبيعي في منظومة بهذا الحجم أن تكثر فيها الفضلات والأوساخ، إلا أننا نجد الطبيعة في حالة دائمة من النقاء والنظافة

الشديدة التي لا تشوبها شائبة. هذا التطهير الذاتي المستمر في البيئة، من تنظيف الرياح للجو، وتطهير البحار للمياه، وتحلل الكائنات الميتة عبر الأحياء الدقيقة، هو في حقيقته تجلٍ لاسم الله "القدوس". قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: 23].

والقدوس هو المنزه عن كل النقائص، والمُطهر عن كل ما لا يليق بذاته العالية، وهو لغة من "التقديس" أي التطهير، و"القدس" بسكون الدال وضما تعني الطهر، و"القداسة" تعني الطهر والبركة، و"قُدَّسَ لله" بالتشديد أي طهر نفسه بعبادته وطاعته وعظمه، ومنه قول الملائكة لربهم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] (الديري، 2008، صفحة 23). فالله جلّ وتعالى هو القدوس: أي الطاهر المنزه عن كل ما لا يليق به من نقائص، فهو المتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال، والإنسان مطالب بالتقديس أي التطهر. فاسم الله القدوس ينشئ مدرسة تربوية يترى فيها الإنسان ويتطهر من أمراض القلب وخبث النفس، وينظف باطنه وظاهره ومحيطه وبيئته.

إنّ السعي إلى أن يتخلق ويتحلّى الإنسان المعاصر باسم "القدوس" ويتعلق ويتحقق به هو من أجلّ الحلول القرآنية التي استثمرها الإمام النورسي في معالجته لمشكلات الحضارة المعاصرة ومن بينها مشكلة البيئة. حيث يذهب إلى أنّ هذا الكون، وهذا المستقر الأرضي، معمل هائل ومصنع عظيم، ومستشفى ضخم ومسكن فخم. وإنّ هذه النظافة الباهرة، وهذا الطهر الطاهر النقي الناشئ من ذلك الكنس والتتظيف الدائم المستمر، ليسوق العيون سوقاً، ويوجه العقول توجيهاً إلى الذات العلية المقدسة. فهذا الكتاب الكوني المنظور العظيم هو في حكم كلمة واحدة من كلمات اسم القدوس، بل إنّ هذا التطهير العام الكوني هو تجلٍ من تجليات هذا الاسم الجليل. (النورسي ب.، كليات رسائل النور: كتاب اللمعات، اللمعة الثلاثون، النكتة الأولى في اسم القدوس، 2011، الصفحات 470-471)

2- التوازن البيئي بتجلي اسم الله "العدل": وفي إيكولوجيا النورسي نلمس جيداً أنّ فكرة إمكانية الانسجام بين الإنسان والطبيعة، وتحقيق التوازن، لا يتسنى في حياة الناس إلّا إذا أعاد البشر التفكير في أساليب حياتهم على الأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]. وهو ما يتقاطع في جزء منه مع ما تعبّر عنه الأدبيات المعاصرة بـ "المنظومة البيئية المستدامة". (هامش، جويلية 2022).

إنّ مفهوم الوئام بين الفطرة الإنسانية والحالة الطبيعية، واحترام التوازن والميزان والتقدير في أنظمة الكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] هو بالأساس ما تقوم عليه رؤية الإمام النورسي للتوازن البيئي بتجلي اسم الله تعالى "العدل". والعدل معناه: العادل: وهو الذي يصدر منه فعل العدل وهو المضاد لل جور والظلم، وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم. وإذا آمن العبد بأن الله عزّ وجلّ هو العدل لم يعترض عليه في أحكامه وتدبيره وسائر أفعاله، وافق مراد العبد أو لم يوافق، لأنّ كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي. (حمادة، 2009).

إذا فאלله سبحانه وتعالى عدل في خلقه، وعدل في أمره وعدل في فعله ونحن بني البشر ينبغي أن نقف بين الإفراط والتفريط وأن نكون معتدلين في كل أفعالنا. والإمام النورسي، من هذا المنطلق، يرى أن كل شيء في الطبيعة، من خلايا الجسم إلى مقادير البحار ومكونات الغلاف الجوي، محكوم بـ"الميزان". هذا الميزان الدقيق ليس إلا انعكاساً لاسم الله "العدل"؛ فالعدالة الإلهية في الكون تتجلى في إعطاء كل كائن حقه الوجودي دون إفراط أو تفريط، وحفظ التناسب بين المخلوقات بحيث لا يطغى عنصر على آخر فيدمر البيئة. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]. وفي هذا المساق يذهب النورسي إلى أن كل شيء من الكائنات، وكل فصيل من فصائلها، محكوم بميزان دقيق، بحيث لو اختل ميزان عنصر واحد من هذه العناصر الجوية أو الأرضية أو البحرية، أو طغى، لتهدم الكون كله في لحظة واحدة، ولفاضت البحور، ولاجتاحت الأرض الأوبئة، ولاختنقت الأحياء في الجو. فكل شيء، من الذرات إلى المنظومات الشمسية، يسير ويمتثل لاسم "العدل". (النورسي ب.، كليات رسائل النور: اللغات، اللعة الثلاثون، اللغات الست) النكتة الثانية في اسم العدل، 2011، صفحة 475 وما بعدها).

وبناء عليه، تظهر ملامح الوعي الإيكولوجي عند النورسي من خلال النظر إلى أن التوازن البيئي جارٍ تحت العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم الله تعالى "العدل" الذي يدبر موازنة عموم الأشياء، ويأمر البشرية بإقامة العدل والميزان. وقد تكرر لفظ الميزان في القرآن الكريم عديد المرات لبيان أهميته البالغة وقيمه العظمى في الكون ومراتبه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمان: 7-9]. (الصالح، "نظرة الإمام بدیع الزمان النورسي الكونية إلى البيئة"، ضمن كتاب: الحفاظ على البيئة في الإسلام وفي الدراسات العلمية المعاصرة، 2012، صفحة 108)

إن تلوث البيئة وإفساد توازنها ناتج عن إخلال البشرية بالميزان الإلهي الجاري في الكون والطغيان فيه، فإفسادها هو إفساد لهذا الميزان الإلهي الذي أقامه في الكون. وكما أن الكون يتطهر باستمرار ويمتثل لاسم الله تعالى "العدل" و"القدوس"، يجب أيضاً على الإنسان، خليفة الله في أرضه، أن يؤسس حياته ووسطه البيئي سواء منه المعنوي أو المادي على التطهر والتوازن لا على التلوث وتخسير الميزان.

المطلب الثاني: الكون كمحارب للعبادة في فكر الإمام النورسي

يجب التنبيه على أن منظور الإمام النورسي في تحويل الكون إلى محارب للتعبد، لا يستدعي إطلاقاً أو لا يتم عبر إلغاء القوانين الطبيعية التي هي سنن إلهية ثابتة، بل عبر فهم الغايات الوجودية الكامنة وراءه. ففي الرؤية النورسية، يكتسب الكون بعده التعبدية من خلال كونه مرآة صقيلة تتجلى فيها الأسماء الإلهية، وهو ما يغير جذرياً سلوك الإنسان تجاه محيطه الحيوي.

أولاً: تجلي أسماء الله الحسنى في عناصر الطبيعة وآثارها البيئية:

وكما سبقت الإشارة إليه، فإن الرؤية الكونية القرآنية تركز على مفهوم أن الكون تجلٍ لأسماء الله تعالى وصفاته، وأن التعامل معه ينبغي أن يكون بمقتضى الأدب مع الحضرة الإلهية لا بدافع النفعية

المجردة. فالعالم مرآة لتجليات الحق عز وجل، مما يوجب على الإنسان إحسان النظر إليه بوعي عميق. هذا الفهم يُرسخ مسؤولية أخلاقية تُلزم الإنسان بعدم التصرف في البيئة إلا بما يوافق مراد الخالق، ويُرسخ حماية الطبيعة بجعلها جزءاً لا يتجزأ من العبادة وعمق الإدراك الروحي؛ فالكون في المنظور القرآني ليس مجرد مادة مستباحة، بل هو أمانة، ومن مقتضى الأمانة أن يحفظ الإنسان حدود الله عز وجل وسننه في مخلوقاته. وفي هذا الإطار يرى الأمير عبد القادر الجزائري (1808-1883م) بأن الكون ليس سوى ظل للحق تعالى ومظهرٌ لاسمه "الظاهر"؛ فالعالم بأسره ما هو إلا تجلٍ لله تعالى وظهور لآثاره وصوره وتعييناته التي تعكس حقائق ألوهيته. وهذا يتجلى في كل شيء، من أصغر المخلوقات كالبعوضة إلى أعظمها. (الجزائري، 2005، صفحة ج1، ص573).

والطبيعة في الرؤية القرآنية ليست موضوعاً مادياً فحسب، بل ميداناً لتجليات الأسماء والصفات الإلهية، وفي هذا السياق يقول الأمير عبد القادر الجزائري: "الأكوان كلها خلقها الله تعالى سلايم يتوصل بها إلى المعاني الإلهية الباطنة فيها، فمن قصر نظره، ووقف مع المثال ضلّ وحر، ومن ارتقى إلى الحقيقة اهتدى (...). لأنّه تعالى ما خلقنا إلاّ لنعبدّه تعالى. والعبادة من غير معرفة المعبود محال، فخلق العالم لنعرفه به تعالى فنعبده، فالآثار دلّت على المعاني الإلهية، والحقائق الربانية، والمعاني الإلهية دلّت على ذات الإله الربّ المعبود تعالى" (الجزائري، 2005، صفحة ج1، ص574. ج2، ص569).

ومن هذا المنظور ينطلق الإمام النورسي في رؤيته الإيكولوجية من فكرة أن الكائنات ليست مجرد مركبات كيميائية أو فيزيائية، بل هي رسائل مشفرة تعكس صفات كاتبها. فالطبيعة في فكر النورسي لا تملك جمالاً ذاتياً مستقلاً، بل هو جمال تمظهري انعكاسي ناتج عن تجلي أسماء الجلال والجمال والكمال الإلهي. وعليه، فإنّ كل عنصر بيئي يصبح بمثابة مظهر لاسم إلهي معين، مما يفرض صيانته ورعايته تقدّيساً للاسم المتجلي فيه. لنستمع إلى الإمام النورسي وهو يوضح هذا المفهوم بكل بدقة وهو يقدم لنا مشهداً تأملياً رائعاً في الطبيعة مبيّناً لنا ارتباطها الوثيق بالأسماء الإلهية فيقول (بتصرف): "انظر إلى وجه الأرض؛ ترى أن يداً حكيمة مدبرة تتصرف فيها تصرفاً مطلقاً.. انظر كيف تُبسّط في كل ربيع كمائدة ممدودة لاسم "الرزاق" يُوضع عليها مئات الآلاف من أصناف الأطعمة الشهية للنباتات والحيوانات، وتُعرض فيها مئات الآلاف من روائع الفنون والنقوش الدالة على اسمي "الصانع" و"المصور".. فهل يمكن أن تكون هذه التربة الصماء، أو هذه العناصر العاجزة، هي التي تدبر هذا النظام الأخاذ؟ كلاً، بل هي الحكمة الشاملة والرحمة الواسعة التي تفيض بها أسماء رب العالمين في هذا المحراب الكوني" (النورسي ب..، كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة الثالثة والثلاثين، (النافذة الرابعة، تأمل في قوله تعالى: الذي خلق الموت والحياة)، 1998، صفحة 814 وما بعدها).

ويذهب الإمام النورسي إلى أنّ بعض الظواهر الطبيعية من عناصر الجو كالسحاب والأمطار والرياح تؤدي وظيفة تعبدية بيئية رابطاً بينها وبين الأسماء الحسنى ويجعلها تحديداً خاضعة لأسماء الله: "المحيي" و"الرحيم" و"الحكيم" فيقول في مناجاة لطيفة رقيقة (بتصرف): "يا إلهي.. إنّ السحاب الهامس في جو

السماء، والرياح المسخرة لخدمة الأحياء، والأمطار الهاطلة برحمتك، كلها تشهد بوجودك وتسبح بحمدك؛ فالرياح تسوق السحب بأمرك كمستودعات مائية لإنعاش الأرض الميتة، متجلية باسمك المحيي والرحيم.. إنَّ هذا التدبير الحكيم لعناصر الجو يمنع فساد الهواء ويحفظ توازن الحياة على الأرض" (النورسي ب..، كليات رسائل النور: كتاب الشعاعات (الشعاع السابع، رسالة الآية الكبرى)، 1993، صفحة 143 وما بعدها).

وما يمكن ملاحظته هنا من خلال أطروحة الإمام النورسي هو أنَّ غاية تسخير الله تعالى الطبيعة للإنسان ليس الهيمنة والاستعلاء على الكائنات والصراع مع الطبيعة، بل خدمتها بخلق التواضع، ورعاية الأمانة، والقيام بوظيفة الاستخلاف وفق أنظمة الطبائع والشرائع. ومن هنا، فإن استثمار الإنسان لما سُخِّر له لا يجوز أن ينفصل عن روح التقديس، ولا عن مقتضيات الأدب مع الله تعالى في كل ما خلقه وأبدعه، كما يلحّ على ذلك منظور النورسي انطلاقاً من القرآن الكريم. وفي هذا الإطار يقول محمد إقبال (ت: 1938): "من خصائص النزعة القرآنية أنها تؤكد على إبراز حقيقة أن الإنسان ينتمي للطبيعة، وهذا الانتماء لا ينبغي تسخير له لحساب الأهواء الجامحة المصاحبة للسيطرة، وإنما لحسابات اهتمامات أنبل تتمثل في حركة الترقى الحر للحياة الروحية" (إقبال، 2011م، الصفحات 35-36). وغير بعيد عن ذلك يؤكد الفيلسوف الإسلامي حسين نصر أنَّ الحق في ممارسة الخلافة في الأرض والاستفادة من المسخرات مشروط بعبادة الله والخضوع لمشيئته وقوانينه، وإنَّ حقوقنا في الطبيعة تتبع مسؤولياتنا نحوها، كما هي جميع الحقوق في الإسلام تتبع المسؤولية ولا تسبقها. (Nasr, 2008, pp. 13-35).

ثانياً: الكائنات الحية أم تسبح بحمد الله تعالى

وفي الوقت الذي ترى فيه الفلسفة المادية المعاصرة أصوات الطبيعة مجرد ظواهر فيزيائية ميكانيكية مادية بحتة، يرى الإمام النورسي أن هذه الأصوات هي لغات تعبدية حيّة. فالكائنات عنده ليست جمادات صماء، بل هي أمم مسخرة واعية بوظيفتها، تسبح بحمد الله تعالى خالقها بلسان حالها ولسان مقالها الخاص بها، مما يفرض على الإنسان التناغم معها لا تدميرها.

1- حقيقة التسبيح الكوني عند الإمام النورسي:

ويؤصل النورسي لهذه الرؤية بالاستناد إلى قوله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]. فالكون كله عبارة عن مسجد كبير، وكل نوع من أنواع المخلوقات يمثل صفّاً من المصلين المسبحين. فيقول: "إنَّ القرآن الكريم يصرّح بأنَّ كل شيء من العرش إلى الفرش، ومن الملك إلى السمك، ومن المجرات إلى الحشرات، ومن السيارات إلى الذرات.. كلّ منها يسجد لله، ويعبده، ويحمده ويقدسه. إلّا أنَّ عباداتها مختلفة متباينة متنوعة، كلّ حسب قابليتها، ومدى نيلها لتحليات الأسماء الحسنى". (النورسي ب..، كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة الرابعة والعشرون، 1998، صفحة 377 وما بعدها).

فالإمام النورسي، ومن خلال هذا النص، يبيّن لنا أنَّ كل أصناف الحيوانات والطيور مأمورون في هذا الكون بالتسبيح للخالق جلّ وعلا بوظائفهم الحياتية، بل إنَّ ألحان الطيور وأصواتها هي تسبيحات

روحانية دالة على الابتهاج بفيض الرحمة الإلهية، فليست تلك الأصوات صرخات عجز ناشئة من الفناء، بل هي ضرب من أذكار الشكر وأناشيد الفرح والسرور في هذا المحراب الكوني.

2-تفاعل الإنسان مع التسبيح الكوني:

من خلال هذا المنظور، يرسم لنا الإمام النورسي الكائنات كأمم مسبحة؛ فالحيوانات والنباتات والجمادات كلهم يقفون على صعيد واحد مع هذا الإنسان الذي ميّزه الله تعالى بالعقل والنطق في محراب واحد هو محراب العبادة لله رب العالمين. فكل مخلوق من الكائنات حياً كان أو غير حيٍّ، ومهما دق أو عظم، مبارك يعبد الله سبحانه وتعالى، ولا ينبغي أن يقتل أو يمحي اعتباراً وعبثاً. فيوظف في الإنسان شعوراً مرهفاً إزاء البيئة. ومن ثمّ يصبح الإضرار بالبيئة أو إبادة أي نوع حيوي بمثابة إجماع لصوت التسبيح وهدم لصفوف المسبحين المتراصة في محراب الكون. وهكذا تصبح العلاقة بين الإنسان والبيئة أو الطبيعة أو الكون علاقة قائمة على الأُنس والمحبة لأنّ الإنسان يدرك حينئذٍ أن كل ما حوله في هذا الكون الفسيح يشاركه في تحقيق العبودية التي مظهرها هنا هذا التسبيح الوجودي اللامتناهي. وبناء على هذا الفهم العميق الذي يطرحه لنا الإمام النورسي يمكن أن يتحقق السلام الإيكولوجي الروحي؛ حيث ينثمر سلوكاً إنسانياً بيئياً قائماً على السلام والمودة والرعاية، وليس على السطوة والسيادة والصراع مع الطبيعة.

المطلب الثالث: الأخلاق الإيكولوجية العملية في رؤية الإمام النورسي

وفي إطار هذه الرؤية النورية بالضبط، يتحول هذا المنظور النظري الإيماني التعبدى للبيئة والطبيعة والكون إلى أخلاق إيكولوجية عملية تقدم حلولاً واقعية للأزمة البيئية المعاصرة وتحمي وترعى التنوع الحيوي وترفض العبث بأي كائن حياً كان أم جماداً. ولا يكتفي الإمام النورسي بتأصيل الرؤية الإيمانية والتعبدية للكون من خلال القرآن الكريم، بل يؤسس عليها منظومة أخلاقية سلوكية صارمة تحكم تعامل الإنسان اليومي مع محيطه الحيوي. إنّ الأخلاق البيئية عند النورسي ليست ترفاً فكرياً أو قوانين زجرية، بل هي جزء لا يتجزأ من تكليف الإنسان واستقامته الروحية.

أولاً: الرحمة الشاملة بالخلق وتقدير الدور الوظيفي

تتعلق الأخلاق البيئية في رؤية الإمام النورسي من ركيزة أساسية هي "الرحمة الشاملة". حيث يرى النورسي أن الشفقة أو الرحمة الإسلامية الحقيقية أوسع نطاقاً من الشفقة الإنسانية Humanism المجردة التي تؤسس لها الحداثة الغربية وترفع شعارها عالياً؛ فالأخيرة تنحصر في الكثير من العواطف الرجراجة و"العواطفية"، عواطف نفسية فردية هي عرضة للتغير مع تغير الظروف كما هو الحال عند الكثير ممن يتحدثون في هذا الشأن. بينما الرحمة الإيمانية تمتد وتتسع لتشمل كل ذي روح وكل كائن حي، لأنها مستمدة من الرحمة الإلهية المحيطة بكل شيء.

1-الرحمة الكونية كواجب إيماني: وهنا يجب أن نؤكد على حقيقة أنّ التزام الإمام النورسي التام بالشريعة الإسلامية جعل منظوره، في تعامله مع الآخر في مظاهره المتعددة، نابغاً من تعاليم القرآن الكريم وما فصلته سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حصر الحق عزّ وجلّ الهدف من رسالته وبعثته في

قوله له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. وقد تكررت كلمة "رحمة" مع مشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من أربع مائة مرة، كما أنَّ كل سورة منه تُفتتح برحمات البسملة، أي "الرحمانية" التي هي من تجليات الاسم "الرحمن"، و"الرحيمية" الخاصة التي هي من تجليات الاسم "الرحيم". ومن الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس نجد الحديث النبوي المسمّى بالحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث الرحمة الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ" (أحمد، 1997، صفحة حديث 6694. ج 11، 33). ورحمة الأرض تشمل كل مخلوقاتها بلا استثناء، ولهذا يقول الشيخ الأكبر ابن العربي رحمه الله (560-638هـ): "الفتى-من الفتوة -هو من يسري فعله وتصرفه في الجماد والنبات والحيوان وفي كل موجود على ميزان العلم المشروع" (عربي م.، د.ت)، (صفحة 2، 233). يعني بالعلم المشروع علم الرحمة والحب، الذي بُعث به المخصوص على الكمال باسم "حبيب الله" المرسل رحمة للعالمين.

ومن هنا يذهب الإمام النورسي إلى أنَّ الشفقة الإيمانية تقتضي الرأفة والرحمة، وذلك من حيث أنَّ المؤمن لما كان يرى بنور الإيمان أنَّ كلَّ كائن هو ملك لله تعالى، وأمور له، ومرآة لأسماؤه الحسنى، فإنَّه يشفق عليه ويرحمه ولا يرضى بظلم الحيوان ولا بإبادة النباتات عبثاً (النورسي ب.، كليات رسائل النور: الكلمات، 1998، صفحة 52). فوشائج المعاملة الصحيحة بين الإنسان وبين البيئة، تستند في موقف الإمام النورسي إلى المبادئ القرآنية والسنية الثابتة. وفي هذا السياق يقول الشيخ ابن العربي: "وعليك برحمة الخلق أجمع، ومراعاتهم، كانوا ما كانوا، فإنَّهم عبيد الله وإنَّ عصوا، وخلق الله وإنَّ فضل بعضهم بعضاً. فإنَّك إذا فعلت ذلك أُجرت؛ فإنَّه صلى الله عليه وسلم قد ذكر أنَّه في كلِّ ذي كبد رطبة أجرٌ. ألا ترى إلى الحديث الوارد في البَغِيَّ أنَّ بَغِيًّا من بَغَايَا بني إسرائيل - وهي الزانية - مرَّت على كلب قد خرج لسانه من العطش، وهو على رأس بئر، فلمَّا نظرت إلى حاله نزعت خفَّها وملأته بالماء من البئر وسقت الكلب، فشكر الله فعلها فغفر لها بـكـلب. (...) وأين المسلم من الكلب؟ فافعل الخير ولا تبال فيمن تفعله تكن أنت أهلاً له" (عربي م.، د.ت)، (صفحة الباب 560).

2- تقدير الدور الوظيفي لأصغر الكائنات: ولعلَّ من أروع الأدلة على عمق الوعي الإيكولوجي والدقة البيئية عند النورسي هو تقديره للدور الوظيفي ودفاعه عن أصغر الكائنات الحيَّة كالنحل والنمل وتلك التي يصنفها الإنسان كـ "آفات" أو مخلوقات مزعجة مثل الذباب، بل ويسعى لإبادة الكيمائية مما سيلحق ضرراً بالبيئة بلا ريب. وعلى العكس من ذلك تماماً يبرز النورسي دورها البيئي كـ "عامل نظافة" يحمي الصحة العامة؛ فطوائف الذباب مأمورون بتنظيف البيئة ومكلفون بامتصاص المواد السامة والميكروبات التي تنشأ من الفساد والمواد العفنة ومستنقعات الأوبئة وتطهير الهواء من الغازات المضرة. فهم يغسلون وجوههم وعيونهم وأجنحتهم دائماً، وكأنَّهم يلقنون الإنسان درساً في النظافة (النورسي ب.، كليات رسائل النور: اللغات، اللعة الثامنة والعشرون، 2011، الصفحات 376-380). ومشروعية الرحمة في التعامل مع هذه الكائنات تستهدف تربية المسلم وتعويده على الشعور بأمانة الاستخلاف على هذه الكائنات، فلا يأخذ الموارد فيما لا

منفعة فيه فيتحلى بالزهد، ولا يطغى ولا يتجبر على هذه الكائنات وكأنها لا تحس ولا تشعر بظلم الإنسان، إنها كائنات تحسّ وتشعر ولكن نحن الذين لا نفقه إحساسها.

ثانياً: الزهد والاقتصاد كأسلوب حياة للعيش المستدام

إذا كانت الأدبيات البيئية المعاصرة ترى في "العيش المستدام" Sustainable Lifestyle ومحاربة الإسراف في الاستهلاك وسيلة ضرورية للتقليل من خطر الأزمة البيئية المعاصرة بمظاهرها المختلفة، فإن الإمام بديع الزمان النورسي قد أمّن لمعنى هذا المفهوم وما يقاربه عمقاً عقائدياً وإيمانياً وروحياً وأخلاقياً وتشريعياً متيناً قبل ظهور هذه الأدبيات بعقود طويلة. فهو يرى أن نمط الحياة الاستهلاكي الجشع، الذي أفرزته الحداثة الغربية، يمثل صداماً مباشراً مع السنن الكونية القائمة على التوازن الدقيق، ويقدم الزهد والاقتصاد؛ بمعنى التدبير الحكيم والقناعة، كمنهج حيوي لحفظ البيئة وتناغم الإنسان مع محيطه.

والزهد يتضمن أبعاداً بيئية واضحة؛ ويُعبّر بصورة أو بآخرى، بالمفهوم البيئي، عن الاقتصاد في الاستهلاك ورفض الإسراف والعيش ببساطة والتزام الاعتدال والتقشف الاختياري والتقليل من الترف وعدم السعي وراء الكماليات. كما يتضمن القناعة التي هي الرضا بما هو كافٍ وضروري فيرى الدنيا كوسيلة لا غاية، ولذلك قيل في تعريف الزهد: "هو فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد"، فهو بهذا الاعتبار ليس مجرد التخلي عن الماديات بل هو تحويل النظرة إلى الحياة الدنيا بحيث يظل الإنسان جزءاً منها دون أن تسيطر عليه.

1- التوازن الكوني يرفض الإسراف:

ولأهمية هذا المفهوم في الحفاظ على البيئة ورعايتها ألف الإمام النورسي رسالة مستقلة في لزوم الاقتصاد وفوائده وتحريم الإسراف وأضراره، وسماها "رسالة الاقتصاد" وصدرها بقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. يقول: "هذه الآية الكريمة تعلمنا درساً حكيماً مهماً بالأمر القاطع بالاقتصاد والنهي الصريح عن الإسراف. فالخالق الرحيم يريد الشكر على الأنعم التي أنعم بها على البشر. بينما الإسراف ضد الشكر، واستخفاف خاسر بالنعيم. أما الاقتصاد، فهو احترام رابح للنعيم" (النورسي ب.، كليات رسائل النور: اللغات، اللمعة التاسعة عشرة، 1993).

إنّ الإسراف يُشكل عاملاً رئيساً في اختلال التوازن البيئي وتدهور النظم الطبيعية بعد أن تغلغل إلى اقتصاديات المنزل والاستهلاك والإنتاج والصناعة والتكنولوجيا والتقنية؛ ممّا أدى إلى توليد حاجات مصطنعة استنزفت الموارد ولوّثت الماء والهواء. وتتطلب استدامة البيئة اليوم ضبط أنماط الإنتاج والاستهلاك وفق الاحتياجات الفعلية للبشرية. وفي هذا المساق، تُمثّل التعاليم القرآنية خير بديل تنموي حاسم للحد من هذا التدهور؛ إذ ينهى التشريع الإسلامي عن الهدر والإسراف، مستنكراً هذا المسلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِحْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 29]. وتؤسس هذه التوجيهات القرآنية لمنهج اقتصادي يوازن بين تحريم التبذير ومحاربة الشح، مما يحرر الإنسان من النزعة المادية، ويضمن احترام

التوازن الحيوي للإنسان والحيوان والنبات وسائر الموجودات (الصالحى، "نظرة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي الكونية إلى البيئة" ضمن كتاب: الحفاظ على البيئة في الإسلام وفي الدراسات العلمية المعاصرة، 2012م، الصفحات 102-103).

وينطلق الإمام النورسي من قاعدة كونية كبرى: وهي أن الخالق سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً، بل جعل كل عنصر فيه يؤدي دوراً بمقدار معلوم دون أي هدر. وبناءً على ذلك، فإن سلوك الإنسان المسرف الذي ينتج أطناناً من النفايات ويستنزف الموارد بلا وعي، يعد خروجاً شنيعاً عن النظام الكوني العام. ويرى أن فاطر السماوات والأرض يدير هذا الكون بحكمة بالغة تماماً، ويسوسه بعدالة مطلقة تامة، فالعبث والإسراف واللا فائدة منفيّة عن هذا الكون نفيّاً كلياً في الجملة، فكل شيء موزون بميزان دقيق، ومصون من الإسراف والتبذير (النورسي ب..، كليات رسائل النور: اللغات، 2011، صفحة 481 وما بعدها).

2-الاقتصاد كشكر عملي لله تعالى يحمي الطبيعة: فالزهد والاقتصاد والقناعة، في رؤية الإمام النورسي، ليس منهجاً للتضييق على النفس، بل هي شكر عملي لله تعالى يُعبّر عن خلاله الإنسان عن احترامه للمخلوقات والكائنات وتقديره لقيمتها الوجودية. فالخالق الرحيم، كما مرّ بنا سابقاً، يريد الشكر على الأنعم التي أنعم بها على البشر، بينما الإسراف ضد الشكر، واستخفاف خاسر بالنعيم. أما الاقتصاد، فهو شكر معنوي عظيم على النعم واحترام رابح لها، ومثار بركة عظيمة، من حيث أنه يدعو إلى عدم التعلق المفرط بالدنيا ومادياتها، مع الحفاظ على دور الإنسان كوكيل مسؤول عن إعمار الأرض ورعايتها. ففي عالم الزهد والاقتصاد يتحول ترشيد استهلاك المياه، والطاقة، والغذاء، وتقليل النفايات من مجرد توصيات حكومية قد يتملص ويتهرب منها الفرد، إلى سلوك يومي تعبدي يبتغي به المؤمن وجه الله تعالى وحفظ أمانة الأرض.

ثالثاً: وظيفة الإنسان كخليفة مؤتمن وليس كمالك مستبد في الكون

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ القرآن الكريم أكد على الموقع المركزي للإنسان في العالم، فهو وحده الذي خُص بالخلافة في الأرض وخُصّ بعلم الأسماء الإلهية كلها حتى أصبح مُعلّماً للملائكة، وهذا استلزام تسخير الكون له وتعميره، لكن بشرط الالتزام بالميزان الشرعي، كما سبقت الإشارة إليه، الذي بيّنه الحق تعالى لخلقه. وبقدر التهاون في إقامة هذا الميزان يكون الفساد الذي يؤول إلى الهلاك والتلاشي. وفي القرآن مئات الآيات المنبّهة على ارتباط صلاح البيئة الكونية بعمل الناس الصالح، وفسادها بفساده، من ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96].

وقد عمل الإمام النورسي على تفكيك موقع الإنسان في الكون الذي وضعت فيه الحداثة المعاصرة، ناقلاً إياه من مفهوم السيادة والصراع والسطو والبطش بالطبيعة، إلى رتبة الخليفة المؤتمن عليها كما أرسى دعائمها القرآن الكريم. حيث تقف الفلسفة البيئية المعاصرة عاجزة عن كبح جماح التدمير البيئي لأنها لم تستطع تغيير النظرة الاستغلالية للإنسان نحو الطبيعة، وهي النظرة التي ترى الإنسان مركزاً للكون ومالكاً

مطلقاً له يحق له تسخير بعنف. وفي مقابل هذه المركزية البشرية المستبدة، يقدم الإمام النورسي أطروحة الاستخلاف والأمانة؛ فقرر أن الإنسان ليس مالكاً حقيقياً لشيء في الطبيعة، وإنما هو "ضيف" و"موظف" مؤتمن" يسير وفق شروط المالك الحقيقي الله عز وجل.

1- حقيقة الأمانة الإلهية وخطر ادعاء المالكية الحقيقية: يرى النورسي في أطروحته العميقة حول "الأنا والأمانة"، أن الله تعالى قد قلّد الإنسان الأمانة الكبرى التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجال. وهذه الأمانة تتطلب من الإنسان أن يدرك أن ذاته، وكل ما يحيط به من كائنات، إنما هي ودائع إلهية رُهِنت عنده ليقوم برعايتها وإبراز حكمتها، لا ليمتلكها تملك استبداد. وعندما ينسى الإنسان هذه الوظيفة، ويظن أنه مالك للطبيعة، بالعلامة الاسمية، فإنه يطغى ويفسد في الأرض، كما قال المولى عز وجل: ﴿كَأَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ [العلق:6]. وهنا يقف الإمام النورسي ليبين لنا أن الأمانة وجه من وجوه "الأنا"؛ فالإنسان قد مُنح "الأنا" ليكون واحداً قياسياً يدرك به صفات الربوبية، ولكن إذا نسي الإنسان حقيقة أنه وظن أنه يملك نفسه ويملك الأشياء ملكاً حقيقياً، فإنه يتحول إلى طاغية مستبد، ويقس كل شيء على هواه، فيخون الأمانة" (النورسي ب.، كليات رسائل النور: الكلمات، 1998، صفحة 635 وما بعدها).

2- الإنسان ضيف مكرم في قصر الكون: ولإلغاء نزعة الغرور البشري التي أدت إلى تجريف البيئة، يلجأ النورسي في أحد نصوصه إلى تصوير الكون كقصر ضخم ضيافي، وتصوير الإنسان كضيف مستخلف في هذا القصر. وبما أن الضيف لا يملك الأثاث ولا البستان، فإنه مجبر أدبياً وقانونياً على احترام نظام القصر ومراعاة رغبة صاحب البيت، وأي تصرف همجي من الضيف يعد قلة أدب وجريمة في حق الضيافة. وإذاً يجب على هذا الضيف أن يلتزم بوظيفة أخلاقية وكونية تتمثل في الحفاظ على بهجة هذا القصر وطهارته، لا إفساده وتلويثه بإسرافه وأقذاره (النورسي ب.، كليات رسائل النور: الكلمات، 1998، صفحة 222 وما بعدها).

إنّ النورسي، بهذا الطرح، ينقلنا من مفهوم "المالكية" و"السيادة" و"السطو" إلى مفهوم "الوصاية" و"الأمانة"؛ والمؤمن والوصي لا ريب أنه سيحاسب أمام المالك الحقيقي على أي تفريط يلحق بالأمانة. فالطغيان البيئي المعاصر، كالتلوث الكيميائي وانتشار المكروبات والفيروسات وغيرها من الأوبئة، ناتج عن "الأنا السيادية المستبدة" التي ترى الطبيعة مجرد ملكية مشاعة. وهنا يأتي مفهوم الاستخلاف كمفهوم أصيل في الرؤية القرآنية وكحل جذري لهذه الأنانية الاستبدادية يطرحه النورسي لأجل ضبط حركة الصناعة والاقتصاد بضوابط العبودية الإلهية، فلا يجوز للخليفة أن يفسد في ملك مستخلفه. فغاية التسخير من منظور النورسي ليس الهيمنة والاستعلاء على الكائنات والصراع مع الطبيعة، بل خدمتها بخلق التوازن، ورعاية الأمانة، والقيام بوظيفة الاستخلاف.

المطلب الرابع: راهنية الطرح النورسي في مواجهة الأزمة البيئية المعاصرة

لقد أفضت الرؤية المادية المعاصرة للوجود إلى الاغتراب عن الطبيعة من منطلق اغتراب الإنسان عن قلبه وروحه، وذلك بتحويل الطبيعة إلى موضوع للاستغلال بدل أن تكون "ذاتاً" في علاقة عشق ومعنى

مع الإنسان. ومن هنا تأتي رؤية النورسي الإيكولوجية-الإيمانية لتتقد بصرامة النزعة المادية في السلوك المعاصر لهذه الحضارة المعاصرة باعتبار أنها تفصل الإنسان عن ذاته وعن وجوده الذي لا قيام له إلا بوجود الحق تعالى.

ومن خلال ما تقدم نلمح راهنية الأطروحة الإيكولوجية للنورسي في تلمس الحلول لمشكلة البيئة في الواقع المعاصر بالاستناد إلى المفاهيم والحلول التي جاء في القرآن الكريم، مقارنة بالحلول الدولية والوضع الحالية. وما يمكن ملاحظته في هذا المجال أن قيمة الفكر الإيكولوجي عند الإمام النورسي لا تنبع من كونه تنظيراً تراثياً جميلاً، بل من قدرته الفريدة على تشخيص العلة الحقيقية للأزمة البيئية المعاصرة وتقديم بديل جذري لها، في وقت وقفت فيه المقاربات المادية الحديثة عاجزة عن إيجاد حلول حاسمة.

أولاً: عجز الحلول المادية البحتة عن معالجة التدهور البيئي المعاصر رغم ما تزخر به الأوساط الدولية المعاصرة بالاتفاقيات والمؤتمرات المناخية العالمية التي تُسنّ القوانين والتشريعات البيئية الصارمة، وتُبنتر التقنيات الحديثة للحد من الانبعاثات وتدوير النفايات. ومع ذلك، تشير التقارير العلمية الدولية إلى استمرار التدهور البيئي، وتفاقم الاحتباس الحراري، وتآكل التنوع الحيوي. ويرجع هذا العجز البيئي في المقاربات المعاصرة إلى أنها تعالج الأعراض وتغفل أصل الداء؛ فهي تحاول حل الأزمة بالمنطق المادي والنفعي نفسه الذي تسبب فيها. وهنا تبرز عبقرية الاستشراق النورسي؛ حيث تتبع جذور هذه الأزمة الإيكولوجية وأرجعها إلى "الفلسفة المادية العميقة" التي بنيت عليها الحضارة الحديثة، والتي أحدثت قطيعة بين الإنسان والكون والخالق.

1- نقد النورسي للفلسفة المادية المؤلدة للأزمات: ويذهب الإمام النورسي إلى القول بأن الفلسفة المادية، التي تنظر إلى الطبيعة بوصفها مادة جامدة ميتة تصنع الأشياء بنفسها، هي فلسفة عمياء لا ترى حكمة الله تعالى في الوجود، وقد سبب هذا العمى إفساد الإنسان لسكينة الأرض ونظامها الموزون (النورسي ب.، كليات رسائل النور: للمعات، 2011، صفحة 247 وما بعدها). والإمام النورسي يضع اليد على أهم المفاهيم النقدية التي يجب استثمارها في إطار معالجة الأزمة البيئية المعاصرة وهي المقارنة الدائمة التي يعقدها بين "الحكمة القرآنية" و"الفلسفة المادية المخربة". ومن الناحية الإيكولوجية، يمثل هذا المنظور نقداً مبكراً ومباشراً لـ "العقلانية الأدواتية" Instrumental Rationality التي نزعت البعد الإلهي والروحي في تعاملها مع الطبيعة وحولتها إلى مجرد مخزن للمواد الخام.

فالإمام النورسي إذن يقدم نقداً جذرياً للنموذج المعرفي الغربي المادي الذي تسبب في الأزمة البيئية، موضحاً أن الرؤية الكونية الفلسفة المادية تعدّ القوة هي مدار الحياة، والمنفعة الشخصية هي هدف كل شيء، وشهوات النفس هي الموجه للسلوك. وهو ما نزع عن الكون نعت "المحراب" الذي يُتعبد فيه الله جلّ وتعالى، وحولته إلى ساحة للاستغلال المادي قاطعة بذلك كل صلة له بالسماء، خاصة مع هذا الانفجار العلمي والتكنولوجي والتقني الهائل الذي آمنت به الحداثة الغربية إيماناً مطلقاً في إيجاد رفاهية بشرية دائمة، وهو الأمر الذي لم يتحقق لها إلى حد الساعة حيث ما فتئت المشكلات البيئية في تفاقم مستمر.

2-عجز القوانين الوضعية عن حماية البيئة: وقد بات واضحاً، من خلال الرؤية الإيكولوجية

لنورسي، أن القوانين والتشريعات البيئية الوضعية عاجزة عن حماية البيئة ورعايتها لأنها تعتمد على الوازع الخارجي المتمثل في الخوف من فوات المصالح الاقتصادية المادية أو من ضروب الإتاوات والغرامات أو العقاب أو غيرها. ويرى النورسي أن هذا الوازع الخارجي وحده لا يمكنه ضبط السلوك الإنساني بشكل مستدام؛ لأنَّ الإنسان بطبعه يميل إلى الالتفاف والتحايل على القوانين متى لم تتحقق مصالحه ومنافعه. وفي المقابل، فإنَّ الطرح النورسي يراهن على الوازع الداخلي النابع من الإيمان والعبودية والقيم الدينية الأخلاقية؛ فالإنسان عندما يدرك بـ "المعنى الحرفي" أنَّ الكون محراب لتحقيق عبودية الله تعالى، وأنَّ الكائنات جند مسبحون لله عزَّ وجلَّ، يتولد لديه ما يمكن تسميته بـ "الضمير البيئي الإيمان"، الذي يمنعه تلقائياً من الإفساد وتلويث البيئة، حتى لو كان بعيداً عن أعين القوانين البشرية.

ثانياً: المقاربة الروحية والأخلاقية للإمام النورسي

وهنا نطرح التساؤل الآتي: كيف تشكل المقاربة الروحية والأخلاقية للإمام النورسي بديلاً شاملاً ومستداماً لإنقاذ المنظومة البيئية من أزمتها الراهنة؟

إنَّ المخرج الحقيقي من المأزق البيئي المعاصر في رؤية النورسي لا يكمن في مجرد تعديل القوانين أو تطوير التقنيات الصناعية الصديقة للبيئة، وإنَّما يكمن في إحداث ثورة معرفية وجودية في نفس الإنسان؛ فالأزمة البيئية في حقيقتها ما هي إلا انعكاس خارجي للأزمة الروحية الداخلية التي يعيشها إنسان العصر الحديث. وفي هذا السياق، سياق مفهوم الأزمة البيئية كما هو هنا بهذا المعنى، يقول الشيخ الصوفي علي الجمل العمراني (ت: 1193هـ): "اعلم أنَّ الله تعالى قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139]. ومن ذلك أنَّك إذا نظرت في الوجود كله غير الله، نظر الوجود كله فيك غير الله. وإذا تركزت على الوجود، تركز عليك الوجود كله. وإذا بخلت على الوجود، بخل عليك الوجود كله (...). وإذا أحسنت للوجود، أحسن الوجود كله لك؛ وإذا أسأت للوجود، أساء الوجود كله لك. وإذا عظمت الوجود عظمك الوجود كله، وإذا حقرت الوجود، حقرك الوجود كله. وهكذا إلى ما لا ينحصر. حاصله: الوجود كالمرآة، بما تقابله يقابلك، وذلك لأنَّ نفسك نسخة من الوجود، والوجود نسخة منك. ونفسك تعدل الوجود كله، والوجود يعدل نفسك. شاهده قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]" (الجمل، 2005، صفحة 300).

ومن هنا، تبرز المقاربة النورسية كبديل ضروري لإنتاج وعي إيكولوجي مستدام يرتكز على دعامتين أساسيتين: المحبة الكونية، وعبادة التفكير في ملكوت السماوات والأرض.

1-المحبة الكونية وأثرها في السلم الإيكولوجي: لقد رسمت الدارونية الاجتماعية والمادية الغربية

العلاقة بين الإنسان ومحيطه البيئي في صورة مشهد مليء بالصراعات، والكون فضاءً خالياً موحشاً، مما دفع هذا الإنسان إلى التعامل بعدوانية وقسوة في الكثير من الأحيان مع محيطه هذا لحماية نفسه من عدوٍ وهمي رسمته له هذه الفلسفة المادية. وفي مقابل ذلك، رأى النورسي أن الإيمان الحقيقي يغيّر "كيمياء"

العلاقة بين الإنسان ومحيطه البيئي؛ فالإنسان المؤمن العابد المسبّح لله تعالى يرى الكون بـ "المعنى الحرفي" كمنظومة مفعمة بروابط الأخوة والتسبيح؛ حيث تغدو الكائنات كلها إخوة له في العبودية، مسبحين لربّ واحد. ومن ثمة يتولد في النفس سلام كوني وألفة صادقة تمنع المؤمن من إلحاق الأذى والظلم بأي جزء من أجزاء هذا الوجود الحكيم (النورسي ب..، كليات رسائل النور: الكلمات، 1998، صفحة 10 وما بعدها. 240 وما بعدها).

2-عبادة التفكّر كمنهج وجودي لحماية البيئة: ويخلص النورسي إلى أنّ الوعي الإيكولوجي ليس ترفاً فكرياً بل هو ثمرة عملية لعبادة التفكّر، فوظيفة الإنسان هي التفكّر في آيات الآفاق والأنفس أين يطالع الإنسان كتاب الكون العظيم ليكون ذلك غذاءً لروحه وحياةً لقلبه، ويمتلىّ تعظيماً للخالق عزّ وجلّ أمام تلك الحكمة السارية في خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]. وانطلاقاً من ذلك ينعكس هذا التعظيم القلبي مباشرة على سلوكه البيئي. ولا يمكن لمؤمن يتفكر في حكمته تعالى أن يكون من المفسدين المخربين لهذا النظام العام. وبذلك يلتقي النظر الإيماني بالعمل البيئي المسؤول (النورسي ب..، كليات رسائل النور: الكلمات، 1998، صفحة 410 وما بعدها).

ومما تقدم تتأكد راهنية وأهمية المقاربة الإيكولوجية للإمام النورسي كبديل ضروري للاستدامة البيئية من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية:

-الأول: تجاوز النفعية الضيقة؛ فمفهوم "العيش المستدام" لا زال في الواقع المعاصر وفي الخطاب الدولي المعاصر محكوم بالمنطق المادي البحث. أما النورسي فيطرح بديلاً لهذا المفهوم قائماً على القيم الأخلاقية والروحية المبنية على الحلول القرآنية المتجاوزة للمادية، حيث تحمى وترعى البيئة لأنها تجلبها لأسماء الحقّ تعالى خالقها ومالكها، ولأنّها مفيدة للإنسان.

-الثاني: بناء المواطنة البيئية الروحية، حيث نجح النورسي بامتياز في إعادة اللحمة بين الهوية الدينية التراثية والهوية البيئية التي فصلت بينهما الحداثة الغربية خاصة عندما قطعت صلتها بالسماء. فالمسلم لا يكون مستقيماً في دينه ما لم يكن صديقاً للبيئة محافظاً وراعياً لها بالمحافظة على توازنها ونظافتها.

-الثالث: العلاج النفسي للإنسان الحديث من خلال إعادة ربطه بالطبيعة عبر المعنى الحرفي، حيث يقدم النورسي علاجاً لحالة الاغتراب الوجودي والقلق النفسي التي بات يعاني منها إنسان اليوم، والتي يدفع ثمنها المحيط البيئي اليوم.

خاتمة:

وهكذا، فقد حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على فكر الإمام بديع الزمان النورسي وتحديداً الإجابة عن أطروحته الاستثنائية في بناء وعي إيكولوجي إيماني تعبدي يتجاوز القصور البنيوي للمقاربات المادية المعاصرة. وقد تبين من خلال المطالب الأساسية لهذا البحث أن حماية البيئة عند النورسي ليست

مجرد استجابة لتهديد مادي أو امتثال لقوانين وضعية، بل هي منظومة تعبدية متكاملة تنطلق من تفعيل النظر الإيماني الاستبصاري للوجود، حيث ينقلب الكون من فضاء جغرافي صامت ومستنزف إلى محراب كبير للعبادة والتسبيح والشهود الإلهي.

وأخيرا وليس آخرا، يمكننا أن نذهب، مع الشيخ عبد الباقي مفتاح، إلى القول: إنّ الفساد البيئي المادي ينبع من اختلال في النفسية البشرية، والذي بدوره يعكس تراجعاً في المجال الروحي الإنساني العام مما يستدعي العمل على تغيير هذه النفسية البشرية في المقام الأول لنتمكن من استئصال هذا الفساد البيئي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ويبقى التساؤل مشروعا حول مدى فعالية قرارات المؤتمرات الدولية وتوصيات الملتقيات المعنية بالبيئة، خاصة إذا اقتصرنا على معالجة الجوانب المادية البحتة للمشكلة دون التطرق إلى جذورها النفسية والروحية؟ ثم هل يمكن حقا أن تكون للتدخلات الجزئية كفاية لمواجهة التدهور المتسارع في التوازن البيئي في الكون؟ الجواب قطعاً هو: لا، مادام يتم التركيز على إيلاء اهتمام كبير للأخطار البيئية بينما تُغفل قضايا أخرى ذات تأثيرات مدمرة أشد وأكثر وضوحاً على الصعيد اليومي، حيث يمكن أن نشير في هذا الإطار تحديداً إلى التنافس المحموم في تطوير وامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وتغلغل وسائل الإعلام السلبية التي تُسهم في تآكل القيم ونشر الرذائل، بالإضافة إلى التغاضي عن السعي الجاد لإنهاء صراعات المصالح الدولية والحروب الإقليمية التي تؤدي بحياة الملايين.

كما أنه يلاحظ تناقضاً لافتاً يتمثل في أن بعض المسؤولين في الدول الكبرى، الذين يُبدون قلقهم إزاء تدهور البيئة، هم أنفسهم من يُوججون هذه الصراعات، مُدركين تماماً أن حضارتهم المادية ومنتجاتها هي السبب الجذري لهذا الفساد البيئي.

ونخلص إلى أنّ المشكلة الجوهرية لا تكمن في قضايا البيئة بمعزل عن السياق البشري الراهن، بل هي متجذرة في العقلية المنحرفة التي تُهيم على العالم اليوم، وعلى أي حال فإنّ أي انحراف مهما بلغت سطوته المؤقتة مصيره الزوال حتماً (مفتاح، 2024م، الصفحات 100-101).

ومن أهم نتائج البحث التي توصلنا إليها:

1- نجح الإمام النورسي في ضبط الخلل المعرفي للحضارة المعاصرة عبر تفريقه بين "المعنى الاسمي" الذي يشرعن تدمير الطبيعة لكونها مادة محضة، وبين "المعنى الحرفي" الذي يضفي القداسة والأمانة عليها بصفتها مرآة دالة على الخالق سبحانه.

2- إنّ ركائز البيئة الأساسية مثل "التطهير الذاتي" و"التوازن الحيوي" هي تجليات حيّة ومستمرة لأسماء الله الحسنى، كالقدوس، والعدل، والمحیی؛ وبذلك يرتفع الإضرار بالبيئة من مجرد مخالفة قانونية إلى "خطيئة عقديّة وروحيّة" واعتداء على لوحة الأسماء الإلهية.

3- ألغى النورسي حالة الاغتراب بين الإنسان ومحيطه، واستبدل نزعة السيطرة العنيفة بنموذج "المحبة" و"الصداقة الوجودية" عبر بنائه لمفهومى للكائنات جميعها كأهم مسحة خاضعة لمنظومة صلاة كونية كبرى.

4- أعادت الإمام النورسي صياغة مركزية الإنسان في الوجود؛ فهو ليس مالكاً مستبداً يملك الطبيعة، بل هو "ضيف مكرم" وخليفة مؤتمن يحكمه منطق الأمانة والوصاية، وهو محاسب أخلاقياً ودينياً عن كل أثر يتركه في هذا القصر الكوني.

5- قدّم النورسي الاقتصاد ونبذ الإسراف كدستور سلوكي يومي، محولاً ترشيد الاستهلاك من توصيات تقنية جافة إلى عبادة شكر عملي تحفظ موارد الأرض وتكبح جماح النهم الحداثي المعاصر.

6- يمكن تصور ميثاق روحي بيئي مستمد من "رسائل النور" للإمام النورسي ويؤسس لخطاب بديل عن الخطابات التقنية أو الاقتصادية البحتة.

التوصيات:

بناءً على ما تقدم من نتائج، يوصي الباحث بالخطوات الآتية:

1- ضرورة الاستفادة من الأطروحة الإيكولوجية للإمام النورسي في صياغة مناهج تعليمية وتربوية بيئية في العالم الإسلامي، لربط التربية السلوكية للنشء بالضمير البيئي الإيماني بدلاً من الاتكاء التام على القوانين الزجرية.

2- إجراء بحوث مقارنة بين "الوعي الإيكولوجي عند الإمام النورسي" وبين أطروحات ما يسمى اليوم "الإيكولوجيا العميقة" (Deep Ecology) في الفلسفة الغربية المعاصرة لبيان أوجه التقاطع والتلاقي والتمايز والتجاوز.

3- دراسة حماية البيئة ورعايتها في "رسائل النور" في ضوء مقاصد العقيدة والشريعة الإسلامية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين.

المراجع

- أحمد، أ. (1997). *المسند* (éd. 1, Vol. 11)، حديث (6494). (ت. ش. الأرئوط (Éd.)، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- إقبال، م (2011). *م. (تجديد التفكير الديني في الإسلام) .ي. م. عدس (Trad.)*، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الجزائري، أ. ع. (2005). *، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف،، . ج2، (éd. 1, Vol. 1) .* (1. ع. أ. مفتاح (Éd.)، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.
- الجمال، ع. (2005). *، اليواقيت الحسان في تصرف معاني الإنسان* .بيروت: دار الكتب العلمية.
- الديرني، ع. أ. (2008). *، المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى (éd. ط1) . (أ. ف. المزيدي (Éd.)*، القاهرة: دار الحقيقة.
- الصالح، إ. أ. ق. (2012). *نظرة الإمام بديع الزمان النورسي الكونية إلى البيئة"، ضمن كتاب: الحفاظ على البيئة في الإسلام وفي الدراسات العلمية المعاصرة . (Vol. 1) الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.*
- الصالح، إ. أ. ق. (2012). *م. (نظرة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي الكونية إلى البيئة" ضمن كتاب: الحفاظ على البيئة في الإسلام وفي الدراسات العلمية المعاصرة . الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.*
- الكريم، أ. (s.d.). *سورة البقرة .*
- النورسي، ب. أ. (1993). *كليات رسائل النور: اللمعات، اللمعة التاسعة عشرة .إسطنبول: دار سوزلر.*
- النورسي، ب. أ. (1993). *كليات رسائل النور: اللمعات، اللمعة الثلاثون، اسم العدل ((éd. 1) .إ. ق. الصالح، Trad.)*، إسطنبول: دار سوزلر.
- النورسي، ب. أ. (1993). *كليات رسائل النور: كتاب الشعاعات (الشعاع السابع، رسالة الآية الكبرى) (éd. 1) . (إ. ق. الصالح (Trad.)، إسطنبول، تركيا: دار سوزلر للنشر.*
- النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات ((éd. 3) .إ. ق. الصالح (Trad.)، إسطنبول: دار سوزلر.*
- النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات ((éd. 3) .إ. ق. الصالح (Trad.)، إسطنبول: دار سوزلر.*
- النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات ((éd. 3) .إ. ق. الصالح (Trad.)، إسطنبول: دار سوزلر.*
- النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات ((éd. 3) .إ. ق. الصالح (Trad.)، إسطنبول: دار سوزلر.*

النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات* (3. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة الثالثة والثلاثين، (النافذة الرابعة، تأمل في قوله تعالى: الذي خلق الموت والحياة)* (3. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة الرابعة والعشرون* (3. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: الكلمات، الكلمة العاشرة* (3. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول: دار سوزلر للنشر.

النورسي، ب. أ. (1998). *كليات رسائل النور: كتاب الكلمات، الثانية عشرة* (3. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول، تركيا: دار سوزلر للنشر.

النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: اللمعات* (6. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), القاهرة: دار سوزلر.
النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: اللمعات* (6. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), القاهرة: دار سوزلر.
النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: اللمعات، اللمعة الثامنة والعشرون* (6. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), القاهرة: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: اللمعات، اللمعة الثلاثون، (اللمعات الست) النكتة الثانية في اسم العدل* (إ. ق. الصالحي (Trad.), القاهرة: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: كتاب اللمعات، اللمعة الثلاثون، النكتة الأولى في اسم القدوس* (6. éd.). إ. ق. الصالحي (Trad.), القاهرة: دار سوزلر.

النورسي، ب. أ. (2011). *كليات رسائل النور: كتاب المكتوبات* (5. ط.). إ. ق. الصالحي (Trad.), إسطنبول: دار سوزلر للنشر.

حمادة، ف. (2009). *أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم والسنة النبوية*. القاهرة، مصر: دار السلام.
سعيد، أ. (1999). *الكلمات*. إسطنبول: دار سوزلر.

عربي، م. أ. (د.ت.). *(الفتوحات المكية Vol. 2، الباب 146)*. (بيروت: دار صادر.
عربي، م. أ. (د.ت.). *(الفتوحات المكية Vol. 560، الباب 560)*. (بيروت: دار صادر.

غينون، ر. (2013). *هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان* (1. éd.). ع. أ. مفتاح (Trad.), إربد، الأردن: عالم الكتاب الحديث.

ليل، م. م. (2001). *حماية البيئة في الشريعة الإسلامية*. "ج. الإمارات (Éd. مجلة الشريعة والقانون) العدد الرابع عشر. 18. p.)

مرسي، م. (1999). *الإسلام والبيئة* (1. éd.). الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية.
مفتاح، ع. (2024). م. (نظرات في التربية العرفانية والأوساط الروحية. 1. ط.). (بيروت: كنز ناشرون.

مونجي, أ. " (2016). رعاية البيئة في التصوف الإسلامي *Teosofia Indonesian Journal of Islamic Mysticism*, Volume 5 (Number 2), p. 136. doi: DOI: <http://dx.doi.org/10.21580/tos.v5i2.1726>
هماش, أ. ع. (2022). أنماط العيش المستدامة. *المجلة الجزائرية للأمن الإنساني*, السنة السابعة، مج07 (العدد 2)، 685-703. Récupéré sur <https://asjp.cerist.dz/en/article/196326>

المراجع الأجنبية:

Ecological. (2026, June Tuesday 16). <https://esa.org/>. Consulté le June Tuesday 16, 2026, sur Ecological Society of America: <https://esa.org/about/what-does-ecology-have-to-do-with-me/>
Nasr, S. H. (2008). "The Contemporary Islamic World and the Environmental Crisis". *SOFHIA: The Journal of Traditional Studies* (13(2)), 13-35.